

المحاضرة العاشرة: القرن التاسع عشر:

يرى المؤرخ محمد حبيدة ان القرن التاسع عشر هو قرن انفصال العلوم عن الفلسفة بما فيها التاريخ بالقول "السياق الاستيمولوجي الذي افرز التاريخ كعلم من بين علوم إنسانية كثيرة انتظمت خلال القرن التاسع عشر انتظاماً منهجياً معقداً ومتشابكاً، يتعلق بانفصال المعارف عن بعضها البعض علوم الطبيعة وعلوم الانسان، وكانت الموجة الوضعانية في القرن المذكور التي ربطت فهم الواقع بقواعد العلم المبنية على الملاحظة العيانية والتجربة...اي غلب حينها التجريب على التجريد اذ طرأ انتقال من نقاش فلسفي مبني على الافتراض الى تفحص علمي يسعى الى تأكيد الأشياء...وبفضل التفحص والتجريب" حصل كما يرى الطلاق بين الفلسفة والعلم خلال ذلك القرن، وتفككت الفلسفة مثل امبراطورية عظيمة كانت مكونة من أقاليم مختلفة، تفتتت بالتدرج، واستقلت عن النفوذ المركزي، كما ينقل عن الفيلسوف الايطالي باولو باريني تبلور علم التاريخ.

تأثر الفكر التاريخي في اوائل القرن التاسع عشر (بالحركة الرومانسية) التي بدأت بالظهور في اواخر عصر التنوير في مجالات الادب والثقافة في اوربا لاسباب سياسية واجتماعية وقومية اهمها الثورة الفرنسية والنزعة العقلانية المتشددة التي سيطرت على افكار ذلك القرن، وكانت الحركة الرومانسية تهدف الى تحقيق مجتمع له قيم تمجد الماضي (العصر الوسيط) وتعزز بالقومية وتتمسك بالدين والاعراف والتقاليد والحق الالهي في الحكم. فأثرت هذه الافكار في التاريخ وابعدهت عن اغراضه العلمية ومنهجه الموضوعي، فغلبت سمة الرومانسية على اغلب الكتابات التاريخية التي الفت في النصف الاول من القرن التاسع عشر ومن أهم سمات هذه الكتابات:

١. التعصب الديني.
٢. النظر الى عصور الماضي نظره تقدير واحترام لانها تمتلك قيماً خاصة للحياة فقدت بريقها بسبب التطور والمدنية، ولهذا فهي تنظر الى العصور الوسطى نظره فخر واعتزاز لاحتوائها على القيم السامية.
٣. احياء النظريات القديمة عن الحق الالهي للملوك وبيان محاسن الكنيسة واخفاء عيوبها.
٤. سيادة الشعور القومي ودعم الحركات القومية ومناهضة الديمقراطية التي بدأت تنتشر في اوربا في القرن التاسع عشر.

الا أن هذا لا يعني عدم وجود آثار ايجابية من ظهور الحركة الرومانسية فكانت أهم ايجابياتها:

١. اسهم ظهور حركة الاعتزاز بالقومية وتمجيد الماضي الى قيام حركة لنشر وثائق العصور الوسطى فنشرت مئات الوثائق والمذكرات والمكاتبات الرسمية ونصوص المعاهدات ثم توسع العمل ليشمل كل محفوظات ومدونات وسجلات العصور المختلفة ثم أصبح بمرور الزمن عملاً علمياً بعيداً عن الاغراض التي كانت تسيره اول مرة.

٢. ظهر في اوربا في تلك المرحلة، لاسيما في المانيا وفرنسا مؤرخون قاموا بجمع وتبويب ونشر عدد كبير من الوثائق التاريخية بعد أن استطاعوا ان يقنعوا حكوماتهم بتقديم الدعم المالي والمعنوي لهم، فأدى هذا الى ظهور وتأسيس معهد خاص بدراسة الوثائق في فرنسا سنة (١٨١٩م) عرفت بأسم (مدرسة الوثائق)، كما ظهرت العديد من الجمعيات التاريخية من اهمها (جمعية دراسات التاريخ الالمانى) و(جمعية تاريخ فرنسا).

٣. أن التأثير السلبي للحركة الرومانسية لم يتجاوز حدود منتصف القرن التاسع عشر، فلم يعد بمقدور التاريخ ان يتخلف عن ركب التقدم العلمي المطرد الذي شهدته اوربا، فبدأ المؤرخين بالبحث عن وسائل تكمن التاريخ من ان يحرز تقدم مماثل لما احرزته العلوم الاخرى، فوجد هؤلاء وتوصلوا عن طريق استخدامهم للبحث العلمي الى صياغة منهج بحث خاص بالدراسة التاريخية يشترك فيه مع مناهج العلوم الاخرى كالموضوعية او الدقة والتحليل والنقد، والاستدلالات العقلية والمنطقية فوصل التاريخ الى مرحلة العلم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأصبح احد العلوم التي تدرس في الجامعات وله اقسام خاصة به واساتذة متخصصون فيه. اذ ان ما ينطبق على العلوم الاخرى ينطبق على علم التاريخ والبحث فيه استناداً لقول كولنجود: ان أي علم من العلوم يشتمل على اي بحث من بحوث المعرفة ويخضع لاسلوب ومناهج البحث العلمي فهو علم.

٤. ومن ابرز مفكري هذا العصر الالمانى ليوبولد فون رانكه (ت ١٨٨٦م) الذي عرف بمعارضته لنظريات فلسفة التاريخ التي كثر واضعوها في ذلك القرن، ورأى ان المؤرخ عليه ان يضع جهوده في تصوير وقائع الماضي كما حدثت بالضبط وان لا يتعدى ذلك ويضع رؤى وتفسيرات فلسفية لان التاريخ والفلسفة مختلفان في منهجيهما وطبيعتهما وقد وجدت ارائه صدى كبير

واتبعه اعداد كبيرة من المفكرين مع أن كتابه التاريخ وتصوير الماضي كما حدثت بالضبط غاية لاندرك ولم يوفق في تحقيقها رانكه نفسه في دراساته التاريخية. ومن اهم سمات طريقة رانكه في الكتابة التاريخية هي:

١. اعتماده على الاصول التاريخية واهتمامه بالوثائق ز التحقق منها وتحليلها ونقدها.
٢. وضع منهج دقيق في تنظيم الوثائق وتقويمها ودراستها وهو عمل عرف بأسم (الدبومات) فعرفت مدرسة رانكه في التاريخ (بالمدرسة الدبلوماسية).
٣. التحقق من الاحداث وعرضها بطريقة كرونولوجية، واجتتاب الحكم على الماضي والاقتصار على وصف الواقعة التاريخية كما هي.
٤. اعترافه بالجانب البشري في تحريك حوادث التاريخ ولهذا فإنه يرى ان التاريخ من صنع البشر ويعطي للعامل الفردي اهمية في توجيه الحوادث وأن لا يوجد هدف محدد يسعى اليه التاريخ.
٥. نفي العلاقة بين الذات أي المؤرخ وموضوع المعرفة أي الواقعة التاريخية، التأكيد على مبدأ ان التاريخ موجود لذاته موضوعياً من دون استصدار احكام واستخلاص عبر.

أ. القرن العشرين:

ادى نجاح الجهود التي بذلها المؤرخون، لاسيما الالمان والفرنسيين والبريطانيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومن ابرزهم رواد المدرسة المنهجية الألمانية والمدرسة الوضعية عام ١٨٧٠ في فرنسا أي ما سمي بالثورة المنهجية الأولى التي دشنت بتأسيس المجلة الألمانية عام ١٨٧٦ وتوجت بإصدار كتاب المدخل للدراسات التاريخية للانغلو وقد أسهمت تلك المدرستين في جعل التاريخ علما له قواعده الخاصة توجت بمنهج البحث التاريخي والجدال الذي امتد الى العقد الثاني من القرن العشرين حول مدى علمية التاريخ، وشارك فيه كثير من المفكرين والفلاسفة والمؤرخين المحترفين. ولكن بمرور الزمن، لاسيما منتصف القرن العشرين لم تعد علمية التاريخ موضع جدل ونقاش لانتشار الافكار التي بدأت بالتبلور في مجال البحث العلمي وفلسفة العلم تؤكد على وجود صلات وثيقة تربط بين مجالات المعرفة المختلفة وتجعل للعلم معنى اوسع ليشمل الجوانب الرياضية والطبيعية والانسانية، فمفهوم العلم الذي جعل من المعرفة المنظمة

المبوبة المقننة علماً يشمل التاريخ بطبيعة الحال لتوفر هذه الشروط في دراسته. وقد ظهر في القرن العشرين العديد من المؤرخين وفلاسفة التاريخ اهمهم:

١. هنري بيري (ت ١٩٣٥م): وهو مؤرخ بلجيكي قام بتطبيق ما يعرف (بالتاريخ الكلي) اي دراسة عصر من العصور من جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية وثقافية كافة للوصول الى رسم صورة متكاملة عنه، وهو يقابل (التاريخ التقليدي) الذي يختص بدراسة التاريخ السياسي فحسب او جانب من جوانب عصر معين او شخصية من شخصياته. ولبيرين العديد من المؤلفات التاريخية أهمها (تاريخ بلجيكا) الذي كان في سبعة اجزاء وطبق فيه منهج التاريخ الكلي.

٢. روبين جورج كولنجدو: وهو مؤرخ وفيلسوف بريطاني كرس اهتمامه وجهوده للتقريب بين الفلسفة والتاريخ، وكان لنشوب الحربين العالميتين الاولى والثانية ما جعله يميل بالاعتقاد الى ان التقدم العلمي لم يساعد في حل مشاكل البشر، وأن الحل هو عن طريق الجمع بين الفلسفة والتاريخ، فدراسة الواقع التاريخي تعطي الانسان نوعا من الحكمة الواقعية تمكنه من حل مشاكله والعثور على طريق قويم لمسيرته. وقد دون كولونجدو ارائه في فلسفة التاريخ في كتابيه (فلسفة التاريخ) و (فكرة التاريخ) اللذان تمت ترجمتهما الى العربية. وقد تبنى كولنجدو (النزعة التاريخية) التي تقابل (النزعة الطبيعية) التي تعني ان التاريخ له منهج بحث خاص به يختلف عن منهج العلوم الطبيعية، فالتاريخ ليس مجرد وثائق ومستندات تنتقل وقائع التاريخ، بل هو النظرة المتعمقة للمؤرخ التي تكشف حقيقة ما تسرده الوثائق.

٣. بندويتو كروتشه: (ت ١٩٥٢م) مؤرخ وفيلسوف وسياسي ايطالي الجنسية واحد اعضاء مجلس الشيوخ في نهاية القرن التاسع عشر عرف بنقده للنظرية الاقتصادية لماركس وهو من المؤيدين للفلسفة المثالية الهيجلية، أسس المعهد الايطالي للدراسات التاريخية عام ١٩٤٧م، وله ستين مؤلفاً في التاريخ والفلسفة والسياسة. تبنى منهج النزعة التاريخية التي تذهب الى عدم صلاحية المنهج التجريبي لعلم التاريخ، ورأى ان دراسة التاريخ تتطلب عملية معايشة للعصر الذي يدرسه او الرجل الذي يؤرخ له. أي أن على المؤرخ ان يعرف روح العصر الذي يدرسه اي طابعه الفكري والفني والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والعوامل التي افرزت هذه الجوانب وحددت

طبيعتها. ويقابل مفهوم روح العصر عند بعض المؤرخين المعاصرين مصطلح (جو العصر) او (المناخ التاريخي)، ويرى كروتشه ان الماضي ليس له وجود فعلي الا في ذهن المؤرخ، فحوادثه لا توجد في الوقت الحاضر الا عندما يستحضرها المؤرخ في فكره ومن هنا جاءت مقولته الشهيرة (كل التاريخ تاريخ معاصر).

٤. واخيراً لعبت مدرسة الحوليات الفرنسية التي تأسست عام ١٩٢٩ دوراً مهماً في تطور التاريخ ودراسته من خلال مجموعة من المؤرخين الذين جددوا التاريخ الكلاسيكي وقدموا لنا مدرسة تاريخ جديدة، انطلقت هذه المدرسة التجديدية من مجلة الحوليات الفرنسية واتت باراء جديدة أسهمت باحداث نقلة على المستوى الفكر التاريخي وجعلت التاريخ مشعباً بالعلوم ومبتعداً عن الحدث ومسايراً لروح العصر ومشاكله ومن ابرز ما قدمته هذه المدرسة للدراسات التاريخية هي التاريخ الاشكالي أي تبني لاشكالية في تناول الموضوعات التاريخية ووضع رؤية لتفسير حوادث التاريخ وسد الثغرات والاجابة عن ما تسكت عنه المصادر والبحث عن أسباب الحوادث التاريخية وربطها ومن ابرز روادها لوسيان فيفر ومارك بلوك وهو ما اطلق عليه بالثورة المنهجية الثانية.